مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية

اسم المقال: دور كتابات الرحالة في التأسيس لعلوم جديدة، علم الدراسات الصينية أنموذجاً
اسم الكاتب: د. حكمات العبد الرّحمن
رابط ثابت: https://political-encyclopedia.org/library/2814
تاريخ الاسترداد: 2025/05/10 06:17 +03

الموسوعة السياسيّة هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت.
لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسيّة - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع https://political-encyclopedia.org/terms-of-use

تم الحصول على هذا المقال من موقع مجلة جامعة دمشق للآداب والعلوم الإنسانية ورفده في مكتبة الموسوعة السياسيّة مستوفياً شروط حقوق الملكية الفكريّة ومتطلبات رخصة المشاع الإبداعي التي ينضوي المقال تحتها.

دَوْرُ كِتاباتِ الرَّحَّالةِ في التَّأسيس لعلومٍ جديدةٍ؛ علم الدِّراسات الصِّينيّةِ أُنموذجًا

د. حكمات العبد الرَّحمن*

الملخَّص

تناول البحثُ دور الكتابات التي نظمها الرَّحّالةُ في وصف الصين الإمبراطورية في التأسيس لأحد أهم العلوم التي ظهرت في الغرب؛ وهو علمُ الدِّراسات الصِّينيّة La Sinologie الذي يهدف إلى دراسة تاريخ الصِّين ولغتِها وحضارتِها. وقد شهد هذا العلم تطورًا كبيرًا منذ أن بدأ يظهر في فرنسا، إلى أن أصبح حاليًّا من أهم الفروع والدراسات التي تتضمنها أهم الجامعات الأوربية والأمريكية واليابانية.

يرمي البحثُ إلى متابعة ودراسة الدور الذي أدّته كتابات الرحالة في ظهور علم الصينيات وتطوّره، ودراسة هذا الدّور، الّذي جعل علمَ الصّينيّات من أهم العلوم الغربية واليابانية في دراسة تاريخ الصّين وحضارتها. كما هدفت الورقة إلى محاولة تقديم صورة واضحة لتحقيق فهم أفضل وأعمق لظهور هذا العلم، وتتبع الأسباب التي أدت إلى ظهوره عند الغرب لا عند العرب الذي كانوا أسبق من الغرب في الوصول إلى الصين، والكتابة عن تاريخها وحضارتها.

* جامعة دمشق، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ.

Le rôle des écrits de voyageurs dans l'émergence de nouvelles sciences: l'exemple de la Sinologie

Dr. Hikmat Alabdulrahman**

Résumé

Cette recherche porte sur le rôle joué par les écrits de voyageurs, consacrés à la description de la Chine impériale, dans le fondement de l'une des sciences les plus importantes qui ont émergé en Occident; à savoir, la Sinologie. Cette science qui vise à étudier l'histoire de la Chine, sa langue et sa civilisation, et qui a pris son essor en France avant de devenir l'une des plus importantes disciplines et études dispensées dans les prestigieuses universités européennes, américaines et japonaises.

La recherche examine le rôle joué par ces écrits dans l'émergence et le développement de la Sinologie, qui est devenue l'une des sciences occidentales et japonaises les plus importantes dans l'étude de l'histoire et de la civilisation chinoises. Ce papier vise à présenter une image claire pour mieux comprendre l'émergence de cette science et cerner les raisons qui ont favorisé son apparition en Occident et non pas chez les Arabes, qui étaient pourtant les premiers à atteindre la Chine et à écrire sur son histoire et sa civilisation, bien avant les Occidentaux.

** Université de Damas, Faculté des Lettres et des Sciences humaines, Département d'histoire.

مقدِّمــة

تمتع الشرق الأقصى عمومًا والصّين على وجه الخصوص بمكانة مهمة في كتابات الرَّحَّالة على اختلاف انتماءاتهم القومية والجغرافية. فكانت الصِّين الجغرافية والحضارية مركز اهتمام كثير من الكتابات التي حملها الرّحّالة إلى بلادهم على اختلاف فئاتهم الدِّينية والسِّياسيّة والدبلوماسية والفردية. وقد أسهمت تلك الكتابات – الرّوايات كما يحلو لبعضهم أن يطلق عليها– في نقل صورة الآخر إلى بلادهم وإعادة توظيفها بما يخدم مصالح بلادهم من جهة، وبتكوين تصوّرٍ جديدٍ – كان يعدُّ كذلك إلى تلك المرحلة جديدًا.

وقد خضعت تلك الكتابات لانتقادات كثيرة، بعضها كان سلبيًا والآخر إيجابيًا. وبصرف النظر عن النتائج السَّلبيّة التي تركتها كتب الرَّحّالة عن البلاد التي وصفوها، فقد تركت تلك الكتابات بالمقابل انطباعات إيجابيّة أيضًا.

وأمّا بحثيَ هذا فركِّز فقط على دور كتابات الرَّحّالة وأوصافهم لتلك البلاد التي زاروها في ظهور علوم جديدة أسهمت في تطوير معرفة الآخر، ذلك أنّ البحث لن يخوض في تلك النتائج والآثار بعمومها.

ظهر علم الاستشراق –في مشرقنا العربي– نتيجة ما كتبه الأوربيّون الذين زاروا بلاد المشرق العربي، أمّا في الصّين فقد ظهر علم الصّينيات (La Sinologie) المعروف بـ (علم الدِّراسات الصِّينيّة)؛ نتيجةَ معلوماتٍ وأوصاف جُمِعتْ عن الصّين.

يتمحور البحث حول إشكاليّةٍ أساسيّةٍ هي دراسة تاريخ تطور نظرة الآخر إلى الصّين، وكيف أسهمت تلك الكتابات التي أنتجتها رحلاتهم، والتي أدَّت إلى ظهور علم الدِّراسات الصِّينيّة في تكوين صورة إمبراطورية الوسط في متخيل الآخر. ثمّ حاول البحث الإجابة عن التساؤلات الآتية: ما أهمية كتابات الرحالة في ظهور علوم جديدة؟ وهل أدَّت هذه الكتابات إلى ظهور مثل هذه العلوم؟ وما أهمية هذه العلوم في زيادة المعرفة عن الآخر؟ وما حقيقة تطوّر غاية هذا العلم وأهدافه؟ كما طرحَ البحثُ العديد من الفرضيات والآراء المتعلِّقة بأهمية هذا العلم وتوصيفِ دوره، وبيانِ تأثيره سلبًا أو إيجابًا.

وأمّا أهمية البحث فتتجلّى في محورين اثنين، الأوّل نابعٌ من الإشكالية التي يطرحها؛ وهي متابعة دور أدب الرحلات ودراسته في ظهور أحدِ أهم العلوم التي تحظى بمتابعة كثير من الأوساط العلمية والأكاديمية والسّياسية العالمية؛ الغربية واليابانية وتطوّرها، واهتمامهم بها. والمحور الثّاني في أهميّة البحث ينبع من محاولته تتبع السِّياق التاريخي لتطوّر علم الدِّراسات الصِّينية وتأثيره السّياسيّ والثَّقافيّ والعلميّ وانتشاره.

هَدَفَتْ هذه الدراسة أساسًا إلى تسليط الضّوء على دور الكتابات التي أنتجها الرَّحّالةُ في ظهور علم الصِّينيّات، ومواكبةِ الجدل الذي رافقها في البحوث والدِّراسات التي اهتمت بدراسة هذه المسألة. أمّا الهدف العام لهذه الدراسة فهو تقديم صورة واضحة تساعد على فهمٍ أفضلَ وأعمق لمسألة ظهور هذا العلم ودوره، وشرحُ الأسباب التي أسهمت في تطور هذا العلم على المستوى العالمي. كما هَدَفَ البحث إلى محاولة تلمّس الأسباب التي أدَّت إلى ظهور علم الدِّراسات الصِّينيّة عند الغرب لا عند العرب؛ وقد عُرفَ منهم رحالةٌ سبقوا الأوربيين في الوصول إلى الأراضي الصّينية، ونقلوا لنا أخبارها وصورتها.

كما عالج البحث كتاباتِ الرَّحَّالة ودورَهم في ظهور علومٍ جديدةٍ توزّعت على محاورَ متعدّدةٍ، وهي:

– **المحور الأول:** دورُ الرَّحّالةِ العرب وإسهاماتهم التي قدَّموها في وصف الصِّين وحضارتها، وإسهاماتهم غير المباشرة في التّأسيس لعلم الدِّراسات الصِّينية الذي ظهر لاحقًا عند الغرب. المحور الثاني يعالجُ صورة الصّين في أوربا في القرنين السّادس عشر والسّابع عشر من خلال أعمال الرّحّالة واليسوعيين، وتقاريرِ التّجّار والدبلوماسيين، وقد أسهمت جميعها في تكوين رأيٍ أوربيٍّ عن الصّين. وأمَّا المحور الأساسي فعالج علم الصّينيات وتتبعَ تاريخ تطور ظهور هذا العلم والمراحل التي مرَّ بها، وأسبابَ ظهوره وأهدافه.

الرَّحَّالةُ العربُ:

كان الرَّحَّالةُ العربُ أسبقَ من الأوربيين في ارتياد بلاد الصين–المكان الذي تنتهي عنده المراكب الإسلاميّة ومنه تبدأ بالعودة– ونقلِ ما شاهدوه من معالمِ تلك البلاد، وتدوينها وكتابتها. وقد ركَّزت تلك الكتاباتُ والمشاهداتُ على وصف المظاهر الحضاريّة والعمرانيّة والعادات الاجتماعية والسُّلوكيات المتنوعة التي كان يمارسها شعبُ الإمبراطورية الصِّينيّة. ونتيجة لذلك كوَّن العربُ صورةً شبهَ واضحةٍ عن حضارات الشَّرق الأقصى، ولا سيّما حضارة الصّين. فشكَّلت هذه الرّحلات أحدَ أهم مصادر تكوين معارف العرب وتصوّراتهم عن الصِّين.

ومع ذلك، فليس هناك تاريخٌ دقيقٌ يمكن الركونُ إليه في تحديد تاريخِ أوّل الرّحلات التي وصلت إلى الصّين، وَنَقلتْ معارفهم إلى البلاد العربية. ذلك أنَّ ما وصلنا من أدب الرّحلات العربية– الإسلامية زادٌ يسير بالمقارنة بما قدَّمه الغربيون. وقد أشارَ نقولا زيادة إلى أنَّ كتابات الرَّحّالة المسلمين قد وصل بعضها عن طريق الرُّواة؛ كسليمان السّيرافي، ومنهم مَنْ دَوَّنَ أخباره كالمسعودي[1].

[1]- زيادة، نقولا: الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني– دار الكتاب المصري، 1987، ص: 148.

أمّا رحلةُ سليمان التّاجر أو رحلة السِّيرافي فتُعَدُّ من أقدم الكتابات التي حملت إلى البلاد العربية وأهمّها، إذ قدّمت وصفًا دقيقًا ومعلومات شبه كاملة عن الصّين[2]. ويُعَدُّ وصفُ السّيرافي للهند والصّين في القرن التّاسع الميلادي أقدمَ وصفٍ عربيٍّ تناول الصّين، الأمر الّذي دفع حسين فوزي إلى وصف تلك الرحلةِ بأنّها "تعدُّ من أهم الآثار العربية عن الرّحلات البحريّة في المحيط الهندي وبحر الصّين في القرن التاسع[3]". وقد نَقَلتْ رحلة سليمان التّاجر معلوماتٍ موثّقة عن الصّين، ووصفت وصفًا دقيقًا الطُّرقَ التّجاريةَ والعادات والتقاليد والدّيانةَ والحياة السياسية وطبيعة الحكم والعلوم الصّينيّة.

أمّا شيخُ الرّحّالة العرب ابنُ بَطّوطة فقد قدَّم وصفًا عامًّا لا تفصيل كبيرًا فيه عن الصّين التي كانت تحت حكم المغول حينها. فركّز على وصف بعض المنتجات الزّراعيّة في الصّين ومقارنتها بما تنتجه بعض البلاد العربية والإسلامية. وتحدَّث عن الصّناعة والتّجارة الدّاخلية في الصّين، وطريقةِ البيع والشِّراء. كما قدّم وصفًا عن الفخّار الصّيني وأسعاره، وطريقة صناعته. إلى جانب وصفِ المراكب الصِّينيّة التي كان يسمّيها الجنك، وشَرَحَ طريقة صنعها. وتطرّق ابنُ بطّوطة إلى الجانب الدّينيّ، فوصف عباداتِ أهلِ الصّين، ووصفَ وجودَ المسلمين في أراضي الإمبراطورية الصِّينيّة؛ ومنهم التجار المسلمون وإقامتهم[4].

بالمحصلة، صوّرت كتاباتُ العرب بلادَ الصّين على أنَّها البلادُ الأكثرُ أمانًا مقارنة بكثيرٍ من البلاد التي زاروها خلال رحلتهم. ويُرجِعُ الرّحّالةُ العربُ سبب ذلك إلى وجود فنادق في كل منطقة يقوم عليها حاكم مع مجموعة من الفرسان والرّجال يسهرون على راحة الناس والنزلاء في الفنادق[5]. عمومًا، يمكن القول: إنَّ ابن بطوطة عُنيَ في رحلاته بالنّواحي الاجتماعية، والطبقات الاجتماعية (العلماء والأولياء) أكثر من عنايته بالنواحي الجغرافية (الأرض والمدن).

---

[2]- الكيلاني، شمس الدين: الآخر في الثقافة العربية صورة شعوب الشرق الأقصى في الثقافة العربية الوسيطة (الصين والهند وجيرانهما، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009، ص: 158.

[3]- فوزي، حسين: حديث السندباد القديم، القاهرة، (د.ت)، ص: 22؛ من كتاب زيادة، مرجع سابق، ص: 149.

[4]- الزركان، محمد علي: "من أدب الرحلات عند العرب"، عاديات حلب، الكتابان الثامن والتاسع، 1988، ص: 257–377.

[5]- رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جـ1، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان؛ حلب، سورية (د.ت)، ص: 489–490.

الرّحّالة الغربيّون:

إنّ الصّورة الأولى في معرفة الصّين في القرنين السّادس عشر والسّابع عشر، بالنسبة إلى أوربا، هي صورةُ بلدٍ غريبٍ عنهم، كما أنَّ صورة الصّينيين هي صورة ذلك الشَّعب المُختلف عن غيره من الشّعوب. وقد أوضح الأب لو كومت، من الجمعية اليسوعية، في كتابه: «عندما يُحاكم الصّينيون عاداتنا حسب الأفكار الخاصة التي تشكّلت لديهم منذ أربعة آلاف سنة، فإنهم ينظرون إلينا على أننا برابرة. ونحن بالمِثل، عندما نُقارن عادات وتقاليد الصين بعادات أوربا وتقاليدها؛ فإن الصّين هي الأمّة الأكثر حكمةً وتهذيبًا، ونحن الأمّة الأكثر غرابة وغير منطقية[6]». ويمكن القول: إن هذا التوصيف يمكن تطبيقه على نظرة كثير من الأمم لبلدان أخرى، وهو توصيف صالح إلى وقتنا الحالي.

وقد أشار اليسوعيّون إلى أنَّ الإمبراطورية الصِّينيّة هي الأقدم بين الدُّول والإمبراطوريات المعروفة في تاريخ العالم. وبسبب خضوع الصّينيين لقوانينهم الخاصة، أصبحت الصّين الأمَّةَ التي تمتلك أفضل القوانين والأكثر سعادة. ولكي لا يفقد الصِّينيون نزاهتهم واحترامهم، فقد تخيلوا أنَّ دولةَ الحكمة تقوم على مقوّمات منها: عدمُ امتلاك أي تجارة مع جيرانها أو مع الخارج، وإقامةُ أيّ نوع من التجارة مع الآخر هو إهانة للصّين التي تمتلك أرضها كُلَّ شيء. وقد وجد اليسوعيون أيضًا أنَّ الصّينيين الأوائل قد عرفوا آلهةً مقدّسةً وأرواحًا سفلية تسهر على الحفاظ على القوانين والحكام والملوك والشّعب. عِلاوة من ذلك، فإنّ المبشّرين لم يُخفوا إعجابهم بالأخلاق الصّينية والمُثُل الرائعة. فالأمثلة عن الفضيلة البطولية موجودة في أغلب الكتب الصِّينيّة القديمة[7].

كانت العلاقات بين البلدان المتباعدة، كالصّين وأوربة علاقاتٍ غير مباشرة، تتم من خلال الوسطاء المسلمين. وقد نشأت العلاقات المستمرّة للغرب مع الصّين من قبل المبشِّرين اليسوعيين ابتداءً من القرن السّادس عشر؛ ذلك أنَّ المواجهة بين الغرب والصّين جرت خلال مرحلتين. كانت الاتصالات الأولى قد تأسّست من قبل الرّحّالة

---

[6]- LE COMTE L., Des cérémonies de la Chine par Louis le Comte, de la Compagnie de Jésus, Confesseur de Madame la Duchesse de Bourgogne ; suivis de la lettre de l'auteur à Monseigneur *** et de la lettre du Roi de Portugal au Cardial Barberin protecteur de cette couronne, Liège, chez Daniel Moumal, 1700, P: 9.

نجد شرحًا لهذه الفكرة أيضًا في كتاب Paul Hazard. أنظر:

La crise de la conscience européenne 1680-1715, Paris, Fayard, 1961, P: 11.

[7]- HAZARD: Pp: 19-20.

والمبشِّرين اليسوعيين الذين دخلوا إلى الصّين لتنصيرها. وبعكس الهدف السّلمي للمواجهة الأولى، فإنّ الاتصالات في المرحلة الثّانية جرت عن طريق القوة (الحروب) لأسباب اقتصادية تتعلق بتجارة الأفيون، ورفضِ الصّين فتحَ أسواقها أمام التّجارة والبضائع الأوربية. وقد اكتسبت العلاقة التجارية للغرب مع الصين–ابتداءً من القرن الثامن عشر–انتشارًا واسعًا وأهمية كبيرة، ولا سيّما بعد أن عدَّ الأوربيون الصّين منجمًا كبيرًا يمكن استغلاله[8]. وابتداءً من القرن السّابع عشر، ارتقت العلاقات الغربية الصّينية إلى علاقات على المستوى الفكري طوَّرها العلماءُ فيما بعد؛ كعلماء الرياضيات والفلك[9].

ويمكن القول: إن الدّراسات عن الصّين تُصنف إلى مجموعات متعدّدة:

– روايات الرّحّالة قبل القرن السّابع عشر، وهي التي حملت عناصر المعرفة الأولى عن الصين. وعمّقت قاعدة المعارف عنها وعن والغرب خاصة في القرنين السّابع عشر والثامن عشر.

– أعمال اليسوعيين والبعثات في القرنين السّابع عشر والثامن عشر.

– تقارير التّجار والدبلوماسيين ابتداءً من القرن الثامن عشر[10]، التي زوّدت الغربيين بكمٍّ وافرٍ من المعلومات. وقد مثلت هذه التقارير مصادر معلومات جديدة عن الصّين، ولا سيما منذ بداية حكم سلالة تشينغ عام 1644. وقد أسهمت روايات اليسوعيين وتقارير السفراء في تشكيل رأي الأوربيين عن الصّين.

لماذا الغرب وليس العرب؟

يمكننا أن نلحظ من خلال نظرة بسيطة إلى ما نقله الرّحّالةُ العربُ ونظراؤهم الغربيون من كتابات عن الصين، وجودَ فارق كبير في طبيعة المعلومات المنقولة بينهم. إلّا أنَّ الاختلاف الجوهريّ بين كتابتهما تمثل في تطور نوعية المعلومات التي أُرسِلت وأهميتها، واستمرار تدفق هذه المعلومات من جهة، وفئات الرحالة الذين نقلوا تلك المعلومات من جهةٍ أخرى. فالاهتمامُ الغربيُّ بالصّين انصبَّ على نواحي حياة الصّين كلّها. أمّا معلومات الرحلات العربية –إذا ما قُورنت بالغربية– فلم تُقدم وصفًا دقيقًا لجوانب الحياة في الصين؛

[8]- LAFFITE. P: Considérations générales sur l'ensemble de la civilisation chinoise et sur les relations de l'Occident avec la Chine, Paris, libraire successeur de V r Dalmont, 1861, Pp: 138-139.

[9]- PINOT. V: La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France (1640-1740), Paris, 1932, P: 25.

[10]- SCHMUTZ. G. M: La sociologie de la Chine, matériaux pour une histoire 1748-1989, Paris, Peter Lang, 1994, P: 27.

السّياسية والاقتصادية والاجتماعية، إنَّما جاءت تلك الأوصاف عامة، تصف ما تراه العين وما تسمعه الأذن بلا تفاصيل حقيقيّة، وليس فيها ما يُشير إلى اعتماد تلك الكتابات على أهل البلاد من العامة أو الخاصة لمعرفة تفاصيل دقيقة ومهمة عن حياة الدّولة الصّينية. كما يُلحظُ أيضًا عدم اكتراث الرّحلات العربية بالجانب السّياسيّ للإمبراطوريّة الصّينة؛ كحياة القصر الإمبراطوري، وكيفية إدارة الدولة الصينية سياسيًا وعسكريًا، ودور النّساء الصّينيات في الحياة السياسية والاجتماعية، فضلًا عن دور الخصيان الفعّال في حياة القصر الإمبراطوري الصّيني، وهو ما تميزت به كتابات الرّحّالة الغربيين، الّذين كانوا أساسًا تجارًا ورجال دين وعساكر وسياسيين وسفراء ومستعمرين في آنٍ معًا، عكسوا تلك الاهتمامات كلّها في رحلاتهم خدمةً لأهداف بلدانهم ومصالحها.

لكنّ ما سبق لا يعني أنّ الرّحّالةَ العرب أغفلوا مثل تلك التّفصيلات في كتاباتهم إغفالًا تامًّا، لكنّها جاءت عامة غير مفصّلة ولا يمكن مقارنتها بمثيلاتها من كتابات الغربيين. فمثلًا اقتصر الوصف الاقتصادي عندهم على وصف المنتجات والتجارة وبعض الصّناعات. في حين تناول الوصف الاجتماعي الأديانَ والعمران والتعليم. وجاء الوصف السياسي عامًا ومختصرًا؛ لامسَ حياة الإمبراطور وطبيعة حكمه والأركانَ التي يعتمد عليها؛ الوزير والقاضي والخصيان... وما قدّمه كل من المسعودي والسيرافي من معلومات عن نظام الحكم في الصين لا يسمح بتكوين فكرة كاملة عن ذلك، في الوقت الذي لم يأتِ ابن بطوطة على ذكر مثل تلك الأمور.

جاءت الإشارات عن النظام السياسي وطريقة الحكم مختصرةً لا تفصيل كبيرًا فيها. فالحاكم الصّينيُّ هو الإمبراطور، ويحكم البلاد عن طريق مجموعة من الأمراء في المدن التي تُكوِّن الإمبراطورية[11]. كما نجد وصفًا للطبيعة الإلهية التي أعطاها الشعب الصيني لإمبراطوره وهي الصّفة التي منعته من الخروج كثيرًا أمام الناس، ومنعت النَّاس في الوقت نفسه من رؤيته[12].

إلا أن التساؤل المهم هو: لماذا تطورت معلومات الغرب عن الصّين وتُوِّجَتْ المعارف الغربية في النهاية بظهور علم الدراسات الصينية La Sinologie في حين لم يظهر مثل ذلك عند العرب؟ مع العلم أن الكتابات والمعارف العربية عن الإمبراطورية الصينية كانت أسبق من نظيرتها الغربية.

---

[11]- ANONYME: Documents sur la Chine et sur l'Inde; dans le livre de voyageurs Arabes IBN FADLAN, IBN JUBAYR, IBN BATTUTA et un auteur anonyme, textes traduits, présentés et annotés par Paule Charles-Dominique, Editions Gallimard, 1995, P: 15

[12]- Idem: P: 17

ممَّا لا شك فيه أنَّ العوامل والظروف التاريخية؛ ولاسيّما السّياسية والاقتصاديّة منها كان لها الدّور الأساس في ذلك. ثم يأتي بعد ذلك دور العوامل الشّخصية أو الرغبة الفردية. ففي الوقت الذي بدأت تظهر في أوربا إمبراطوريات استعمارية تبحث عن مصالح اقتصادية وسياسية مُسخِّرةً الوسائل والإمكانيات لتحقيق ذلك، توقف العرب عن التّقدّم السّياسي والتطور الحضاري، وبدأ نجمهم يأفل. فكان للدولة في تلك المرحلة دورٌ سلبيٌّ على العقل ونشاطه، وبدأت الحضارة العربية قليلةَ الحركة والنَّشاط والتوثب، وظهرت كأنّها لا حركة فيها ولا نشاط[13]، عكس ما كانت تشهده أوربا من تشكّل للدول القومية التي تبحث عن المصالح والنفوذ. فضلًا عن تزايد النَّشاط التبشيري الدّيني خارج أوربا الذي سخرته الدول الأوربية خدمة لمصالحها. ويمكن أن نشير إلى أنَّ الشرق الأقصى مثّلَ تحديًا سياسيًا جديًا ومطمحًا اقتصاديًا لتلك الإمبراطوريات الأوربية. لكنّ الغرب الباحث عن التوسع والمنفتح على العالم اصطدم بالصّين المنغلقة، الرافضة لأيِّ نوعٍ من العلاقات مع الأجانب أو البربر كما كانت تصفهم وثائقهم ومراسلاتهم.

ويُعدُّ السببُ الاستعماري (الاقتصادي والتجاري) العنصرَ الأكثر أهمية، والأشدَّ تأثيرًا في انجذاب الأوربيين إلى الصّين واهتمامهم بها. فالحكومات الأوربية تعلم أنَّ الصّين يمكن أن تُشكل سوقًا واعدة لمنتجاتهم المصنعة، ومصدرًا كبيرًا للمواد الأولية[14].

علم الدِّراسات الصِّينيّة La Sinologie:

إنَّ علم الدراسات الصينية حسب معجم لاروس Larousse هو دراسة التّاريخ واللغة والحضارة الصّينية. في حين يختصّ عالم الدراسات الصينية في اللغة والحضارة الصينية. وهنا يمكن القول: إنَّ مصطلح La Sinologie مرادف لمصطلح آخر هو le sinisat. فحسب المثقفين، فإن مجال عالم الدراسات الصينيةLe sinologue يشمل اللغة والتاريخ الصينيين، في حين عالم الصينيات هو المتخصص باللغة والحضارة الصينيين[15].

فعلم الصّينيات هو علم دراسة الصين، وهو علم يعتمد على مقاربة منهجية ونظرية ومفاهيم غربية عن الصين[16]. ويعتقد بعضهم أنَّ بداية ظهور علم الصّينيات كان مع وصول الأوربيين الأوائل إلى الصين. وقد نشأ هذا العلم مع وصول البرتغالي ماثيو

[13]- زيادة، نقولا: مرجع سابق، ص: 190.

[14]- TSOUKI K: Histoire de la Chine et de la civilisation chinoise, traduit d'après la 4e Édition par George Peniker, Paris, Payot, 1949, P: 197

[15]- Définition de «sinologie sur le site larousse.fr

[16]- http://www.chine-informations.com/mods/dossiers/sinologie_1465.html.

ريشي Matteo Ricci (1552–1610) الذي كان يعدُّ أبا علم الصينيات الغربي[17]. بينما قدر آخرون أنَّ علم الصّينيات قد بدأ مع إقامة اليسوعيين في الصين وكتاباتهم عنها في القرنين السّابع عشر والثامن عشر[18].

بينما يُشير بعضهم إلى أنَّ بداية ظهور علم الدراسات الصّينية يعود إلى وقت أبكر من عصر ماركو بولو، إلى القرن الثالث عشر على وجه الدقة. وبناءً على ذلك، فإنَّ الدّراسة المنهجية للتاريخ والحضارة الصّينية تعود إلى القرن السادس عشر، وهي المرحلة التي تضمنت الدراسات الأولية لعلم الصينيات، ذلك العلم الذي تعلّق بدراسة جوانب تقارب المسيحية مع الحضارة الآسيوية.

ويُعيد قسمٌ آخر بداية علم الدراسات الصّينية إلى عصر ماركو بولو Marco Polo (1254–1324)، على نحو أدق في القرن الثالث عشر. وهذه الفئة من الباحثين تعيد الدراسة المنهجية للصّين إلى القرن السّادس عشر، عندما حاول الغربيون، مثل ماتيو ريتشي وفرديناند فيربيست وأنطوان توماس إدخال المسيحية إلى الصّين السّاعية للتقارب مع الآسيوية.

على أنّ هناك كتابات قدَّمها غربيون آخرون في فرنسا صاحبة الريادة في تأسيس علم الدراسات الصينية، ومن ثم في بريطانيا وألمانيا اللتين كان لهما الفضل في تطور هذا العلم. وقد نُظمت الدِّراسات الصّينولوجية الفرنسية من قبل المدرسة الفرنسية في 11 تشرين أول عام 1814م. وقد أنشأ أبل ريموسات كرسيّ اللغة والثقافة الصينية والتتارية المنشورية[19]، وأعطى هذا الكرسيُّ علماءَ الصّينيات الفرنسيين قفزةً رسميّةً وعلميّة. ويمكنك أن تلحظ تلك القفزة من خلال العالم ريموسات ستانيسلاس جوليان Remusat Stanislas Julien الّذي صار أفضلَ علماءِ الصِّينيّات في عصره، خلال أربعين عامًا فقط من التّعليم، من 1832 إلى 1873. ونذكر كذلك إدوارد بيوت Edward Piot (1803–1850) أفضل طلاب جوليان باسان Julien Bazin (1799–1863)، وبوثيير Pauthier (1801–1870). وقد وضعت المدرسة الفرنسية فرنسا في المكانة الأولى بالنسبة إلى جيرانها، إنكلترا وألمانيا إلخ[20]. ذلك أنّ أفضل علماء الصّينيّات الفرنسيين هو: هيرفي دو سانت دونيس Hervey de Saint Denys (1823–1892) الذي ترجم الأشعار الأكثر

[17]- FRÉCHES J., La sinologie, Paris, Presses universitaire de France, 1975, P: 11.

[18]- SCHMUTZ. G. M: op, cit, Pp: 39-40.

[19]- CHAVANNES. E: La sinologie, Paris, Larousse, 1915, P: 6

[20]- FRÈCHES. J: La sinologie, op, cit, P: 37

شهرة في عصر سلالة تانغ، وايمبولت هورت Imbault Huart (1857–1897) وكتابه عن البلاطات الصينية[21].

بعد وفاة عالم الصّينيات الفرنسي جوليان باسان انتقلت إدارة الدّراسات الصّينية ومركزها إلى إنكلترا. وكرس عالم الصينيات ريفيرند الكسندر ويلي Révérend Alexandre Wylie (1815–1887) الذي وظِّفَ من قبل مؤسسة المبشرين في لندن حياته في نشر الكتابات الصّينية، وترجمة المؤلفات الغربية ونشرها[22].

واكتشف الأوربيون الصّين بفضل وصولهم إليها ابتداءً من عام 1582. إذ أسهمت جهود اليسوعيين من خلال كتاباتهم واكتشافاتهم وملاحظاتهم في ظهور علم الصّينيّات (علم دراسة الصين) ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر. هذا العلم الأوربي الجديد (علم الصينيات) استقر وتطور أول الأمر في فرنسا، ثمَّ في مرحلة تالية في إنكلترا، وأخيرًا في ألمانيا.

وظهرت الصين في عيون الأوربيين بصورتين مختلفين: الأولى ابتدأت من وصول الأوربيين حتى عام 1750[23]. ونُقلت هذه النّظرة الإيجابية إلى أوربا من قبل الرّحّالة والمبشرين اليسوعيين[24]. ولكن منذ عام 1750، حلّت النَّظرة السَّلبيّة محل الإيجابية. وكان وراء هذا التغيير أسباب: منها ما يتعلّق بالصّين نفسِها حين فقدت علماءَها وأصدقاءَها المخلصين. في حين ظهرت من جهة أخرى صورة جديدة للصين من قبل الرّحّالة الجدد والتّجار والدبلوماسيين وعلماء الصينيات[25].

وتطورت معرفة الأوربيين بالصّين ووجودهم فيها ومعرفتهم بها مع وجود (انتشار) مؤلفات اليسوعيين في القرنين السابع عشر والثامن عشر. إذ أدّت هذه البعثات دورًا

---

[21]- CHAVANNES: op, cit, P: 7-8

[22]- SCHMUTZ: op, cit, P: 42

[23]- DUCORNET. E: «L'évangélisation dans l'histoire, ses difficultés rencontrées dans l'annonce de l'évangile : l'exemple de la Chine», conférence de la semaine interdisciplinaire, Mardi 20 avril 2004, Pp: 1- 21

[24]- SCHMUTZ: op, cit, P: 45-46; SHI. Z: «L'image de la Chine dans la pensée européenne du XVIIIe siècle: de l'apologie à la philosophie pratique» dans revue annales historiques de la révolution française, N° 347-janvier-mars 2007, press de la société Un, Deux, Quatre, Éditions Clermont- Ferrand, France, Pp: 93-111.

[25]- SCHMUTZ: op, cit, Pp: 45-46.

مهمًا في نقل صورة المجتمع والتاريخ الصّيني إلى أوربا، وفي الوقت نفسه القيامِ بأوّل الاتّصالات الثّقافية والدينية بين الصّين والغرب؛ فمؤلفات البعثات الأوربية كلّها عن الصين مثّلت المصادر الأساسية للكُتّاب الغربيين المهتمين، وللكُتّاب المختصين بالصين والصينيين قبل القرن التاسع عشر، وهو القرن الذي شهد ظهور العلم الجديد الذي سمي بعلم الصينيات[26].

وبعد عام 1750 وخلال القرن التاسع عشر، أصبحت صورةُ الصين سلبيةً شيئًا فشيئًا. نتيجةَ جملةٍ من العوامل، ليس أقلّها فقدان الصّين علماءها وأصدقاءها اليسوعيين، ليحل محلهم الرحالة الجدد والتجار والدبلوماسيون[27].

ويبدو أن صفة الاستثناء مازالت صفةً حصريّةً بدول شرق آسيا: كالصين واليابان. فهذه الأخيرة صاحبةُ المعجزة الاقتصادية لاقت أيضًا اهتمامًا علميًا وأكاديميًا استثنائيًا، في حين حققت الصّين تطورًا اقتصاديًا استثنائيًا منذ إصلاحات دينغ سياو بينغ Deng Xiaoping وهي تحظى هذه الأيام باهتمام علمي وبحثي استثنائيّين.

إنَّ الاهتمام بالكتابة عن الصين ليس وليد لحظته أو حديث العهد. فالصين كانت دومًا تحت نظر الكتاب والمؤرخين الغربيين، وتحت عدسة مجهر كتاباتهم منذ القرن الثامن الميلادي؛ عصر ماركو بولو (1254–1324)، لكنّ أسباب ذلك الاهتمام اختلفت. فبعد أن كان الغربيون يكتبون عن الصين بدافع الفضول والرغبة (علم الصينيات الوهمي أو الخيالي)، أصبحت الكتابة والاهتمام بالصّين لأسباب دينيّة أولًا، وهو العامل الذي مثلته بعثات اليسوعيين التبشيرية الدينية المسيحية (الكاثوليكية) من القرن السّادس عشر إلى القرن الثّامن عشر، الذي تولد عنه علم الصّينيات الدّيني، وقد مثّله ماثيو ريشي. ومع بداية القرن الثامن عشر أصبح الاهتمام الغربي اهتمامًا علميًا يُدار من قبل مؤسسات علمية أوربية على مستوى عالٍ يقوم عليها أشخاص علمانيون تدرس الصّين؛ كل الصين.

ولعل القفزة الكبرى –إن صح التعبير– في علم الدِّراسات الصِّينيّة جاءت مع دخول الولايات المتحدة الأمريكية ميدان الاهتمام بعد الحرب العالمية الثّانية، مدفوعة باهتمامات إستراتيجية في منطقة المحيط الهادي وشرق آسيا. فأنشأت أغلب الجامعات الأمريكية أقسامًا أو مراكز أو معاهد أو دورات متبادلة مع الجامعات الصينية، فضلًا عن قيام بعض هذه الجامعات بالتوءمة مع جامعات صينيّة تُقيم لطلابها دورات مددًا طويلة من الدراسة

[26]- Idem: Pp: 31-36

[27]- Idem: P: 39

والبحث في الصّين. وقد سمح هذا التطور للولايات المتحدة الأمريكية بأن تمتلك المئات من علماء الصّينيات الذين يقومون بنشر المئات من البحوث والدراسات تفوق تلك التي تُنشر في البلدان الأخرى المهتمة كلّها باستثناء اليابان. وجاء الاهتمام الأمريكي في خضم الجدل الدائر بين أوساط النّخب السّياسية والأكاديمية عن مستقبل القوة الصّينية التي دخلت ميدان التنافس مع الولايات المتحدة الأمريكية بوصفها القوة الوحيدة المرشحة لذلك، ولاسيَّما مع ظهور تيار من بين تيارات أخرى يقول بحتمية تفوق القوة الصّينية على نظيرتها الأمريكية، وأنها ستُصبح القوة القائدة للنظام العالمي، وأنّ القرن الحادي والعشرين سيُصبح قرنًا صينيًا لا أمريكيًا حسب تعبير جوزيف ناي Joseph Nye[28]. ومنذ ما يزيد على عقدين، ازداد الاهتمام الأكاديمي والسياسي العالمي بالدبلوماسية الصّينية وسياستها الخارجية.

وفي العقد الأخير، كانت كتابات علماء الصينيات الغربيين على جانب كبير من الأهمية، إذ تركّزت على معالجة السّياسة العالميّة التي تنتهجها الصّين لتكون دولة مندمجة ومتناغمة مع المجتمع الدولي، وفي الوقت ذاته دولة قوية منافسة وفاعلة. وقد ركزت أغلب البحوث على دراسة تأثير التحولات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها الصّين في سياسة الصين الخارجية والأمنية، فضلًا عن تتبع مسعى الصين نحو تعزيز تأثيرها في النظام الدولي مستغلة علاقاتها بالقوى العظمى، أو من خلال علاقاتها مع المنظمات الدولية. وقد تناول علماء الدّراسات الصّينية هذه الموضوعات من بين موضوعات أخرى كثيرة، ولاقت اهتمامًا كبيرًا من قبل كتاب وباحثين ومحللين غربيين.

خاتمة:

لا شك أن قوة أيِّ بلد وأهميته تتمثلان [إلى حدّ كبير] بقدرة هذا البلد على جذب انتباه الآخرين واهتمامهم، وهذا حال الصّين التي تمتّعت بتلك الخاصية من أول اتصال لها مع الآخر؛ العرب أولًا والغرب ثانيًا. فالاهتمام الغربي بجوانب الحياة الصينية كلّها – دون النظر إلى أسباب هذا الاهتمام– استمر متواترًا بلا توقف أو انقطاع منذ القرن الثّالث عشر، القرن الذي شهد تمكين السّيطرة العثمانية على أجزاء واسعة من المشرق العربي، وقد كانت الصين خاضعة للسيطرة المغولية حينها.

احتلت الصين، في العالم، مكانة متميزة وشكلت ظاهرة فريدة ومازالت [29]. فضلًا عن ذلك، تُمثل الصّين في آسيا: «بلدًا نموذجيًا سواء على المستوى الثقافي أو العلمي أو

[28]- في ذلك انظر: ناي، جوزيف: هل انتهى القرن الأمريكي؟، نقله إلى العربية: محمد إبراهيم العبد الله، شركة العبيكان للتعليم، الرياض، 2015، ص: 47–68.

[29]- في نظر علماء الصينيات الفرنسيين، كانت الصين أرض الحكمة والعدالة والشرف.

السّياسي، وثقافتها مارست تأثيرًا حيًا في البلدان المجاورة: كوريا واليابان وفيتنام، الخ...[30]».

من جهة أخرى، مثلت الصين في القرنين السّابع عشر والثامن عشر نموذجًا لعدد من الدول الأوربية. وعدَّ دونيس ديديروت (1713–1784) الصّين والصينيّن «الشَّعب الأعلى في كلِّ أمم آسيا، بقِدَمِهم وعقولهم وتقدُّمهم في الفنون وحكمتهم وسياستهم وتذوقهم للفلسفة[31]».

ويمكن إيجاز تاريخ تطور علم الدراسات الصّينية في الغرب في ثلاث مراحل أساسية: المرحلة الأولى هي مرحلة تشكل علم الدراسات الصّينية الخيالي la imaginaire Sinologie في العقلية الغربية التي تقترن بعصر ماركو بولو. والمرحلة الثانية هي علم الدراسات الصينية الدّيني la Sinologie religieuse التي خصصتها البعثات التبشيرية المسيحية، وهي المرحلة الممتدة بين القرن السادس عشر ونهاية القرن الثامن عشر، فقد كانت معرفة الصين وحضارتها وتاريخها ومؤسساتها بالنسبة إلى المبشرين اليسوعيين وسيلة لتسهيل عملية التّبشير الدِّينيّ، ونشر الدّيانة المسيحيّة في الصّين. أمَّا المرحلة الثالثة فهي مرحلة علم الدّراسات الصّيني العلميّ la Sinologie scientifique ففيها تجذّر علم الدّراسات الصيني العلميّ في العديد من الدول الأوربية من خلال مؤسسات التّعليم العالي التي يقوم على إدارتها أناسٌ علمانيون، بعيدًا عن الشّكل الدّينيّ.

إنَّ مصالح الغرب وأهدافه كان لها دورٌ مهمٌّ في ظهور علم الدراسات الصينية وتطوّره. فهذا العلم ظهر –كحال علم الاستشراق– عندما أدرك الغرب عدم قدرتهم على السّيطرة على الآخر عسكريًا. كما أنَّ علم الدَّراسات الصِّينيّة الذي هو بالأساس كتابات الرحالة الغربيين وُظِّفَ [في جزء كبيرٍ منه] لخدمة الأهداف الاستعمارية غير الموجودة عند العرب ومصالحها. والاستثناء الوحيد هو فئة الرّحّالة الذين سافروا إلى الصّين لسبب شخصي أو لغايات علمية أو استطلاعية بهدف دراسة الآخر دراسةً علميّةً، ومعرفته معرفة عقلية، لما فرضه هذا الآخر من تقدير واحترام. ومع ذلك لم تكن هذه الكتابات بعيدة عن الاستغلال والتوظيف.

GUY. B: The French image of China before and after Voltaire, studies on Voltaire and the eighteenth century, edited by Theodore Besterman, Genève, 1963, volume XXI. Pp: 11-12.

[30]- LI. She: Stratégies missionnaires des jésuites français en Nouvelle France et en Chine au XVIIe siècle, Paris, 2001, P: 137

[31]- Idem: P: 137.

ويبقى الهدف التجاري–الاقتصادي بوصلةَ الدُّول الاستعمارية الغربية، إذ يأتي التّجار وأصحاب المصالح بتمويل من شركاتهم ومؤسساتهم لتعرّف ما تمتلكه أراضي الإمبراطورية الصّينية من ثروات وقدرة على الاستهلاك. فالنهضة الأوربية الاقتصادية كانت تحتاج إلى المواد الخام، وإلى أسواق لتصريف منتوجاتها، فانهالت الوفود بهدف تعرّف تلك الإمكانيات. وتجدر الإشارة إلى أنَّ الفصل بين تلك العوامل متعذّرٌ؛ فالأهداف الاقتصادية والتجارية سُخِّرت لخدمة الهدف الدّيني الذي لم يكن بعيدًا عن الاستغلال والتّوظيف، في الوقت الذي استُغِلَّت الأهداف السياسية لتحقيق الغايات التجارية والاقتصادية.

إنَّ علم الدراسات الصينية بسبب وجود المئات من علماء الدّراسات الصّينية، ومثل ذلك العدد من المراكز والمؤسسات والجامعات في القرن الحادي والعشرين، مدعوٌّ اليوم في الغرب إلى أن يأخذ دورًا أكثر قوة وتأثيرًا من أي وقت مضى نظرًا إلى الأهمية الاقتصادية والاستراتيجية المتزايدة للعالم الصيني. وهذه الأهمية ليست بعيدة عن منظار الاهتمام العربي الذي لا يزال يحتاج إلى كثير من الوقت والجهد لتلمس الطريق لتأسيس علم عربي خاص بدراسة تاريخ الصين وحضارتها يماثل ذلك الموجود في الغرب. وممَّا لاشك فيه أن الجامعات والمراكز العلمية العربية قادرة علميًا وماليًا على تأسيس مراكز دراسات وتأهيل متخصّصة في الدراسات الصينية.

المصادر والمراجع:

المراجع العربية:

1. رحلة ابن بطوطة المسمَّاة تحفة النّظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، جـ1، دار الشرق العربي، بيروت، لبنان؛ حلب، سورية، (د.ت).
2. الزركان، محمد علي: من أدب الرحلات عند العرب، *عاديات حلب*، الكتابان الثامن والتاسع، 1988، ص: 257–377
3. زيادة، نقولا: الجغرافية والرحلات عند العرب، الشركة العالمية للكتاب، دار الكتاب اللبناني؛ دار الكتاب المصري، 1987.
4. فوزي، حسين: حديث السندباد القديم، القاهرة، (د.ت).
5. الكيلاني، شمس الدين: الآخر في الثقافة العربية صورة شعوب الشرق الأقصى في الثقافة العربية الوسيطة (الصين والهند وجيرانهما)، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، 2009
6. ناي، جوزيف: هل انتهى القرن الأمريكي؟ نقله إلى العربية: محمد إبراهيم العبد الله، شركة العبيكان للتعليم، الرياض، 2015

المراجع الأجنبية:

1. ANONYME: Documents sur la Chine et sur l'Inde; dans le livre Voyageurs Arabes IBN FADLAN, IBN JUBAYR, IBN BATTUTA et un auteur anonyme, textes traduits, présentés et annotés par Paule Charles-Dominique, Editions Gallimard, 1995.
2. CHAVANNES. E: La sinologie, Paris, Larousse, 1915.
3. DUCORNET. E: "L'évangélisation dans l'histoire, ses difficultés rencontrées dans l'annonce de l'évangile: l'exemple de la Chine", Conférence de la semaine interdisciplinaire, Mardi 20 avril 2004.
4. FRÉCHES. J: La sinologie Paris, Presses universitaire de France, 1975.
5. GUY. B: The French image of China before and after Voltaire, studies on Voltaire and the eighteenth century, edited by Theodore Besterman, Genève, 1963.

6. LAFFITE. P: Considérations générales sur l'ensemble de la civilisation chinoise et sur les relations de l'Occident avec la Chine, Paris, Libraire successeur de V°r Dalmont, 1861.
7. LE COMTE. L: Des cérémonies de la Chine par Louis le Comte, de la Compagnie de Jésus, Confesseur de Madame la Duchesse de Bourgogne ; suivis de la lettre de l'auteur à Monseigneur *** et de la lettre du Roi de Portugal au Cardial Barberin protecteur de cette couronne, Liège, chez Daniel Moumal, 1700.
8. LI. She: Stratégies missionnaires des jésuites français en Nouvelle France et en Chine au XVIIe siècle, Paris, 2001.
9. HAZARD Paul: La crise de la conscience européenne 1680-1715, Paris, Fayard, 1961.
10. PINOT. V: La Chine et la formation de l'esprit philosophique en France (1640-1740) ،Paris ،1932.
11. SCHMUTZ. G. M: La sociologie de la Chine ،matériaux pour une histoire 1748-1989 ،Paris ،Peter Lang، 1994.
12. SHI. Z: L'image de la Chine dans la pensée européenne du XVIIIe siècle: de l'apologie à la philosophie pratique» dans revue annales historiques de la révolution française, N° 347-janvier-mars 2007, press de la société Un, Deux, Quatre, Éditions Clermont- Ferrand, France, Pp: 93-111.
13. TSOUKI K: Histoire de la Chine et de la civilisation chinoise ،traduit d'après la 4e Édition par George Peniker ،Paris ،Payot ،1949.

مواقع الإنترنت:

1. Définition de « sinologie sur le site larousse.fr
2. http://www.chine-informations.com/mods/dossiers/sinologie_1465.html.